مفهوم العــدل لدى رواد النهضة في الجزائــر

أ / حسين بن مشيش
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة باتنة

الملخص:

لقد تناولنا في هذا الموضوع دور العدل في مفهومه الإنسانى، لما له من أهمية في حياة الإنسان، ثم أردفناه باستعراض من القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، ومما أثر بعدهما عن الخلفاء الراشدين وأئمة المسلمين .

ثم تطرقنا إلى الموضوع الرئيسي، الذي هو دور رواد النهضة الإصلاحية في الجزائر في بثهم للعدل، عن طريق فتح المؤسسات التعليمية التي أنارت للأمة الجزائرية طريق الحق .

Résumé:

On a abordé dans ce thème, la notion de justice dans la conception humaine et son rôle et son importance dans la vie humaine.

On a illustré à l'aide d'exemples sa valeur dans le coran et les paroles du prophète, ainsi son utilisation par les califes et les Imams musulmans.

Enfin, on a précisé le rôle des pionniers réformateurs en Algérie et leur application de la justice a travers l'ouverture des institutions de l'enseignement .Ces pionniers ont guide et dirigé la notion Algérienne dans la bonne voie, voie de la renaissance.

مدخل:

لقد كثر الجدل في إشكالية مفهوم العدل التي طرحت على الساحة الفكرية العالمية، وما زالت تطرح بكيفيات تكاد أن تكون متوحدة الرؤية والهدف، وإن تخللها بعض التداعيات التي أخلت بالمفاهيم الأصلية نتيجة لأهواء وأغراض المستبدين، الأمر الذي أدى بمفهوم العدل إلى التقهقر والجمود المرحلي أحيانا، وهو ما سبب التخلي عنه في بعض مراحل الحياة الإنسانية التي نلاحظ فيها استحواذ الأقوياء والجبابرة على غيرهم من البسطاء والمستضعفين في الأرض من المخلوقات البشرية التي أصبحت رهينة الظلم والجور الذي حل بهم، بسبب الحكام الجائرين .

وعلى غرار هذه النظرة، نحاول تسليط بعض الأضواء على مفهوم العدل حسب التدرج الزمني باختصار، وسنحاول أن نستعرض آراء رواد الحركة الإصلاحية عن هـــذا المفهوم، ولتوضيح ذلك ينبغي أن نعرف العدل بأنه الاستقامة في الأهداف والمقاصد، ويعرفه أفلاطون بقوله: "التوازن بين قوى النفس الثلاث، العقلية والغضبية والشهوانية"[1]، ويعني بالتوازن التحكم والسيطرة على تلك القيم الثلاث. وهو" خلاف الجور"[2] الذي نجده عند أبى هلال العسكرى: "خلاف الاستقامة في الحكم وفي السيرة السلطانية، تقول جار الحاكم في حكمه والسلطان في سيرته إذا فاق الاستقامة في ذلك "[3] ويضيف قائلا: " وفي نقيض الجور والعدل وهو العدول بالفعل إلى الحق"[4]، وهو " الإرادة الراسخة لاحترام الحقوق وأداء كل الواجبات"[5]، ومعنى هذا أنه من اللازم إرساء القواعد الأساسية للحقوق، واحترام ما يمكن احترامه، دون تجاوز للأهداف المشروعة، ومنها ينتج " الإنصاف والمساواة بين الناس، وهو الحكم بالاستواء، وهو تحري المساواة والمماثلة بين الخصمين بأن لا يرجح أحدهما على الآخر بشيء قط، بل يكونان سواء" [6] أي أنه لا يكون هناك دواعي المحاباة أو التفضيل في اللون أو الجنس أو العرق، مثل ما هو واقع بين الأمم ذات السيادة والمسودة أي الغالبة والمغلوبة على أمرها.

وإذا ما عدنا إلى توضيح لفظ العدالة أو المعادلة فنجد أنه "يقتضي معنى المساواة، والعدل نقيض الظلم والجور، والعدل له مرادف هو القسط " [7]، وقد جعله الله الغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب في جميع مراحل الهداية الإلهية [8]، حيث ورد عنه جل شأنه:" **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتب والميزان ليقوم الناس بالقسط** "[9]،

والميزان عند ابن كثير: "هو العدل وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحية المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة "[10]، أما بالنسبة للقسط فيذكر أنه دون هذا الميزان الثابت في الشريعة الإلهية لا يمكن الاهتداء إلى العدل[11]، لأن ما جاء به الرسل هو الحق مصداقا لقوله تعالى: "**وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا** "[12] أى صدقا فيما ورد من الأخبار وعدلا فيما نزل من الأوامر والنواهي .

وإذا ما انتقلنا إلى سيرة المصطفى، وبحثنا عن منزلة العدل في سنته التي اهتمت باستعراض دور العدل في حياة الفرد والجماعة على السواء، ويتضح ذلك من المنزلة التي رتب فيها سيد الخلق الإمام العادل في الصنف الأول من الأصناف السبعة الذين يظلهم الله تعالى يوم القيامة [13]، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، إمام عادل ..." الحديث [14].

فهذا خبر من الرسول الأكرم أن مكانة الإمام العادل لأحب وأقرب إلى الله يوم القيامة منه سبحانه وتعالى مجلسا، خلافا للإمام الجائر الذي هو من أبغض الناس إليه يوم القيامة وأشدهم عقابا [15]، وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسا إمام عادل وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا إمام جائر"[16]، تلك هي المنهجية التي وردت عن الرسول عليه الصلاة والسلام ليبلغها إلى الناس كافة، ليتمسكوا بها أسلوبا وعملا بما شرعه الله شرعة تسعد المتمسكين بها من كافة الناس .

وإذا ما تتبعنا السلوك القيم والسوي في العدل عند الخلفاء الراشدين، نجدهم جادين في اقتفاء الأثر الذي جاء به حبيب الله عليه الصلاة والسلام، وطبقوه على أنفسهم وعلى رعيتهم من الولاة وغيرهم، ومن ضمن هذه الأحداث ما وقع في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إذ روي عنه أنه كتب إلى عماله في الأمصار أن يقدموا إليه عند موسم الحج المقبل، فلما جاء الموعد قدموا والتف حولهم جموع من الناس، فوقف وقال: " يأيها الناس، إني أبعث عمالي هؤلاء ولاة بالحق عليكم، ولم أستعملهم ليصيبوا من أبشاركم ولا من دمائكم ولا من أموالكم فمن كانت له مظلمة عند أحد منهم فليقم، فما قام من الناس يومئذ إلا رجل واحد فقال: يا أمير المؤمنين عاملك ضربني مائة سوط ؟ فقال عمر لعامله موبخا: أتضربه مائة سوط ؟ ثم قال للرجل المظلوم قم فاقتص منه[17].

بهذا الأسلوب كانت تؤخذ الحقوق من طرف الخليفة عمر رضى الله عنه والذي كان يدعى بالفاروق، ومعناه أنه يفرق بين الحق والباطل .

وعلى غرار ما سلف ذكره عن الخليفة عمر رضي الله عنه، نجد الدعوة نفسها من أجل تطبيق العدل لدى أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه، عندما كتب إلى عامله الأسود بن قطيبة صاحب جند حلوان قائلا:" أما بعد: فإن الوالي إذا اختلف هواه منعه ذلك كثيرا من العدل، فليكن أمر الناس عندك في الحق سواء، فإنه ليس في الجور عوض من العدل فاجتنب ما تنكر أمثاله، وابتذل لنفسك فيما افترض الله عليك راجيا ثوابه ومتخوفا عقابه واعلم أن الدنيا دار بلية لم يفرغ صاحبها فيها قط ساعة إلا كانت فرغته عليه حسرة يوم القيامة، وأنه لن يغنيك عن الحق شيء أبدا، ومن الحق على حفظ نفسك، والاحتساب على الرعية بجهد ك فإن الذي يصل إليك من ذلك أفضل من الذي يصل بك والسلام " [18].

هكذا كان السلف الصالح من الأمة المؤمنة يضربون أروع الأمثال في العدل، من الفاروق عمر بن الخطاب إلى عمر بن عبد العزيز وأمثالهما الذين قدموا دروسا في الحكم بالعدل والإنصاف بالحق .

ولعل من الأجدر أن نذكر هنا رأي الإمام أبى حامد الغزالي حيث حاول أن يعمق الفكرة قائلا: " وقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعا، والعدل سبب النجاة فقط، وهو يجرى من التجارة مجرى رأس المال"[19]. بهذا يتضح أن رواد الإصلاح في الجزائر حاولوا جادين إيقاظ النفوس من السبات الذي حل بهم منذ أمد طويل، وحان الوقت ليعودوا إلى أصولهم الذين أبطلوا الباطل وحققوا الحق، وذلك بالدفاع عن ذلك بشتى الوسائل والسبل التي تنير طريق أمتهم لتعود إلى مجد الأجداد د الأوائل وهوما نلاحظه في كتاباتهم

التي نجد فيها تأثيرا وا ضحا مما اكتسبوه من الثقافة الإسلامية التي غرست في عقولهم أفكارا عالية، وذات قيمة إ إنسانية عميقة، قلما نجدها إلا فيمن ا ستمد قبسه من المنبع الذي لا ينضب ولا يزول بزوال الأمم، فهو باق إلى يوم الدين ألا وهو القرآن الكريم، ذلك القبس الذي تمسك رجال الإصلاح الجزائريين به وحاولوا من خلاله تضمين أفكارهم التي نلاحظها في نصوصهم التي نقدمها لاحقا

من هذا المنطلق نجد محمد البشير الإبراهيمي وهو أحد رجال الإصلاح الجزائريين المتمسكين بهذا المبدأ الذي استمد من قناعاته بأن " الحاكم إن لم يكن له ضمير يردعه ولا قانون يزعه، ولا رقيب يمنعه، ولا حسيب يذوده عن الظلم ويدفعه، رجع إلى الغرائز الإنسانية الدنيا فدفعته إلى المحاباة والعنصرية، فكان على يده ضياع العدل أولا، وضياع قوته التي يستند إليها ثانيا، وكم أهلك الظلم من أمم، وتلك هي سريرة الاستعمار، وتلك هي جريرته التي يأخذ الله بها " [20]، مصداقا لقوله تعالى:" **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا** "[21]، ففي هذه الآية الكريمة إشارة واضحة لإرشاد البشر إلى ما هم ملزمون بالمحافظة على ما عهد لهم من أموال أو أمتعة أو أشياء أخرى، لنشر الثقة والمحبة بين الناس والتعامل الحسن، لأن الجماعة الإسلامية مكلفة في هذه الآية بأداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل .

ونلاحظ أن الأمانات تبدأ من الكبرى التي نجد أنها منوطة من الله بفطرة الإنسان، التي رفضت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، فهي أمانة الهداية الإنسانية والمعرفة الربانية والإيمان به عن قصد وجهد واتجاه. تلك هي أمانة الفطرة الإنسانية خاصة [22]، وتؤكد الآية أنه على الحاكم أن يقوم بالمهمة الملقاة على عاتقه وأن يتولى المسؤولية بالمساواة بين جميع الناس دون تمييز، لا عدلا بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب ولا عدلا مع أهل الكتاب دون غيرهم، بل العدل حق لكل إنسان بوصفه إنسانا، وهذه الصفة يلتقي فيها البشر جميعا [23] .

وورد عن الإبراهيمي أيضا في توضيحه لصيغة العدل قوله:" وأخرى تثبت العدل وتحميه، وهي إحساس الحاكم برقابة متيقظة ممن تحته، وبمحاسبة دقيقة ممن فوقه، فإذا زايله وازع الضمير ووازع القانون، رده وازع المراقبة والمحاسبة إلى سواء السبيل"[24].

فالحديث هنا يتعرض فيه إلى كيفية دوام الاستقامة في العمل وبث العدل، وهذا لا يتأتى إلا إذا كان هناك شعور من المسؤول بالواجب أو أن هناك عيونا تراقبه، وتتحسس خطواته الأمر الذي يؤدي بالمسؤول الذي لم يصغ إلى تأنيب الضمير أو ردع من طرف القانون فإن المحاسبة الدقيقة والرقابة الفاحصة، تجبرانه على الاعتدال والاستقامة وتدفعه

إلى العمل الصالح والمرشد إلى هدى السبيل عملا بقوله تعالى:" **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون**"[25] .

ففي الآية أمر من الله بصيغة التوكيد على إقامة القسط بين الناس وعمل الخير، واجتناب ما يسيئ إلى خلق الله من أفعال مذمومة، لأن كتاب الله جاء بالمبادىء التي تكفل تماسك الجماعات واطمئنان الأفراد والشعوب، والثقة بالمعاملات والوعود والعهود وجاء بالعدل الذي يكفل قاعدة ثابتة في التعامل، لاتميل مع الهوى، ولا تتبدل بالقوة والضعف، ولا بالغنى والفقر إنما تتجه نحو طريقها الذي يكيل بمكيال واحد للجميع وتزن بميزان واحد للجميع [26].

والعدل نوعان [27]: الأول وهو ما يراه العقل حسنا، أ ثناء التعامل المتبادل والذي يقول عنه الإبراهيمي: " إن العدل لا تثبت أركانه لزعازع الاستبداد، ولا يقوي بنيانه على طغيان المستبدين، إلا إذا كان بين الحاكم والمحكوم علاقة من محبة وجامع من مصلحة، ورابطة من روح، وشركة من شعور: شعور من الحاكم بأن المحكوم شريكه ومعينه، وشعور من المحكوم بأن الحاكم زميله وقرينه وأنهما - لذلك كله- متعاونان على إقامة العدل، فإذا وجد أصل هذا الشعور في الجانبين ازداد تمكنا كلما أتى العدل ثمراته " [28]، نلاحظ من هذا القول أنه لكي يسود العدل أمة يفترض عليها أن تطهر بلادها من دنس العابثين والمستحوذين على الحكم بالعنف والقوة .

ولكي يطبق العدل لا بد من إيجاد رابطة تربط بين الحاكم والمحكوم وهي المصلحة العامة، والروح الإنسانية، والإحساس بالهدف المشترك، وعلاقة الانتساب إلى الوطن الواحد، كل ذلك يؤدي إلى التعاون الحسن المتبادل من أجل الدفاع على المكتسبات الإنسانية المشتركة بطرق إيجابية وعادلة بين الحاكم والمحكوم كل في اختصاصه، دون تجاوز المهام المنوطة بكل عنصر من عناصر الأمة، وبذلك تصير علاقة التعامل متجهة نحو الإحسان إلى من أحسن إلى الآخر لأن الله يقول: " **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** " [29]، ومعنى الآية أن العمل الصالح لا يقابل بالمكر السيئ، بل لا بد من المعاملة بالمثل، ليكون هناك عدل، وهو ما ترشدنا إليه الآية الكريمة، وكذلك ما

جاء في قوله تعالى: " **وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها، إن الله كان على كل شيئ حسيبا** " [30].

ومعنى الآية أنه عند إلقاء التحية، فالواجب على من وجهت إليه أن يحيى من حياه بأفضل التحيات، فإذا لم يفعل ذلك فليكن الرد بمثل ما وجه له، ليكون عدلا ومساواة في التحية، لأن إفشاء السلام سلامة وأ من لمن وجهت إليه، وعليه أن يكون عادلا بالإحسان إلى من أحسن إليه بإعطائه الأمان لمن آمنه .

والنوع الآخر من العدل هو ما يسمح الشرع التعامل به لأنه يتطلب التقابل والتماثل [31]، كما هو الأمر في حالة القصاص في قوله تعالى: " **الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين** " [32]. ومعنى الآية أن كل من سولت له نفسه الاعتداء على غيره، يقابل بالمثل، لأن في مثل ذلك عدلا، وتطبيقا لأمر الله الوارد في قوله تعالى: "**وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين**" [33] هذه لفتة إلى دفع الأعداء وإغاثة المعتدى عليه لأنه يعتبر من قبيل العدل

وفي هذا السياق يصرح الشيخ العربى التبسي رافعا صوته وسط شعبه، مرشدا إياهم إلى عدم الرضوخ إلى إرادة من أراد إذلاله، وانتزاع حقه منه، بطريقة الادعاءات المغرضة التي تبثها فرنسا في الوسط الشعبي، علىأنها حكومة تحمل الحضارة وتنشرالثقافة، وتقوم بالعدل، أي أن دورها هوعكس ما يقوم به رجال الإصلاح الجزائريون، ولكن هذا الادعاء مردود على من يدلي به لأن دليله غير يقيني، وأمره مفضوح لأنه دخيل ومعتد، وهو ما يؤدي بنا إلى التساؤل التالي: متى كان المعتدي يفعل خيرا !؟ إذا لم يكن إقباله على أوطان غيره إلا لأجل إذلالهم وإشباع رغباته المادية لا غير. ثم يستشهد على تلك التصرفات السيئة من الاستعمار، المتمثلة في عدم السماح لهم في إ نشاء المدارس للتعليم، مشيرا إلى ذلك بقوله: " إننا لا نسكت عن حقنا ولا نزال مطالبين به حتى نتمكن منه، ولا نكون حينئذ مهرجين ولا ظالمين لأن الحكومة المهرجة وهي الظالمة، وسنبتدئ في التعليم وإن لم تكفنا هذه الأماكن الصغيرة المبعثرة سنقرأ هناك - بالصنوبر- ونكتب بالخط العريض، هذا أثر من آثارالعدالة الفرنسية " [34]، فالكلام هنا فيه سمة من سمات الذكر الحكيم المتمثلة في قوله تعالى: " **يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق** " [35] .

فالآية الكريمة جاءت مخاطبة داوود عليه السلام حين أتاه الله الحكم، بأن يقضي بين الناس بالعدل، وهو ما لا نجده في أحكام الحكام الدخلاء على الوطن الجزائري، الذين طمسوا الحقوق، واستعبدوا الرقاب وعاثوا في الأرض فسادا .

إنه كما يضيف الشيخ العربي التبسي مذكرا بأن: " القادرعلى اختراع الأغلوطات، وإن غضبت الأديان وسخطت العدالة، واحتجت الجغرافيا وأنكر ذلك مبدأ من مبادئ الحقوق والعدالة" [36] تلك هي صفة الاستعمار أينما كان وأينما حل، لأن هدفه هو السعي لإشباع غرائزه المادية ذات الطابع اللاإنساني، وهو ما يتصف به هذا النوع من البشر غير مبال بقوله تعالى:" **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما** " [37]، فالآية تحمل في طياتها خطابا موجها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي يدعو فيه أن يقضي بين مخلوقاته سبحانه وتعالى من البشر، بما أبصره من رؤية الحق، ولا تأخذه في حكمه لومة لائم، ولمن جاء بعده من الخلفاء والحكام اقتفاء أثره في الحكم .

وفي خضم تلك التداعيات التي يدعو إليها رجال الإصلاح في شتى المجالات، ويطالبون الحكام الفرنسيين فيها بالإنصاف بينهم وبين غيرهم من المستوطنين، مثل ما مر بنا في النص السابق فيما يخص حق تلقي التعليم، وعدم التضييق عليهم، وحشرهم في أماكن ضيقة أو غير لائقة، مما يصعب تأدية مهمة التعليم لعدم الإنصاف من الاستعمار. وهو مادعا بالإبراهيمي أن يصرح به في قوله: " والعلم رمز الإنسانية والكمال والقضاء رمز العدل والمساواة، ومن رشد الحكومات الصالحة أن تكفل للعلم والقضاء الحرية والاستقلال وتبعد برجالها عن جميع المؤثرات، فإذا سخرها الاستعمار في أغراضه، واتخذ من رجالها أدوا ت لتنفيذها فذ لك هو الفساد في الأرض " [38].

فالنص جاء فيه صاحبه بإشارتين ثابتتين، وبهما يمكن إثبات الصفات الخصوصية لكل نوع، فالعلم مثلا لا ينسب إلا لبني البشر، لأن الله خصه به وحده دون المخلوقات الأخرى، بدليل قوله تعالى: " **اقرأ با سم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم** " [39] .

فهذا النص القرآني فيه دعوة إلى القراءة والتعليم، لأن من القراءة يصبح الإنسان عالما، وإذا علم صار مطلعا كثيرا على ما كان يجهله، وبالتالي يستطيع أن ينظم حياته ليكون مميزا عن غيره، من الذين لا يعلمون، ولذ لك يشار إليه بالإ نسان الكامل الذي

يناظر ويعادل القاضي العادل، الذي يستلزم أن يتولاه العالم المدرك لنظرياته التي يجب أن يحسن تكييفها حسب الوقائع والأوامر والنواهي التي تيسرعليه، أي أن يكون عادلا في أحكامه .

والتسيير الحسن من طرف الحكومات في دعوة الإبراهيمي الآنفة الذكر هو أن تقوم بالرعاية والدعم للعلم والقضاء، وأن يسمح لهما بالعمل في حرية واستقلال، لأن العدل إذا لم يتجنب من يتولون القيام به كل الميول والأهواء والأغراض السلبية التي تحد من مهام القاضي، الذي يصبح عندها قاصرا عن تطبيق العدل أو فرضه كما يجب

وفي هذه الحالة ينتشرالعبث، وتسود الفوضى التي تؤدي لا محالة إلى الجمود التام في جميع النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، نتيجة لسوء تصرف الحكام، وعدم إعطاء أي أهمية لهذا العنصر الحساس، الذي لا يمكن دونه أن يقوم أي كيان لحكومة أو دولة مهما بلغت، لأنها تخلت عن المسؤولية المنوطة بها، وهو الحكم العادل الذي من المفروض أن تكون حقوق الناس فيه متساوية الموازين، كما جاء في قوله تعالى: " **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس** " [40] .

فالآية تفيد معنى أن الرسل عليهم السلام أرسلهم الله، وهم مزودون بالتربية الفطرية السليمة، والعقول النيرة والدلائل الواضحة في الاعتدال والاستقامة، أثناء معاملتهم مع الناس، ويقسطوا أي يعد لوا في كل ما اعترض سبيلهم، ليتلقى عنهم الحكام والرؤساء، هذه السيرة الحميدة التي لا يجب أن تقتصر عند هذا الحد فقط، بل من المفروض أن تسود جميع الأفراد على مستوى المعمورة ليسود الإخلاص والحب والوئام

وفي هذا السياق الذي لا بد وأن يمكن العدل من اتخاذ سبيله، يقول ابن باديس: " ومن يقوم قسطاس العدل، وينبت رواق الأمن حتى ينال العقاب من يرمى بالشر بطلاه كما يصيب من يرتكبه فعلا "[41]. وفي هذا توجه إلى متابعة الشرير ومعاقبته حسب الإساءة التي ارتكبها، وأن يستعمل في عقاب الخارج عن الطاعة كل الوسائل المتاحة، فإذا لم يذعن لإرادة العدل جرد إليه السيف المصنوع من الحديد ليقومه، ويعيده إلى جادة الصواب .

والواضح من حديث ابن باديس أنه لا مفر من رفع السلاح ضد هذا العدو الذي يتربص الدوائر، وما زال يتمادى في اعتدائه ضد المواطنين وعليهم أن يرفعوا عن

أنفسهم الذل والهوان بالوسيلة المستعملة في دفع الشر ألا وهي الجهاد في سبيل تطهير البلاد من الظلم وإقامة العدل .

ولكي ندرك معنى العدل الذي تعرض له رجال الإصلاح لجمعية علماء المسلمين في الحديث السابق متأثرين في ذلك بما جاء في القرآن الكريم الذي عبرعنه بثلاث كلمات منها: العدل، والقسط، والميزان، وقد جاء ت مادة الوزن في القرآن الكريم بمعنى العدل كما في قوله تعالى: " **الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب** " [42]. وكذلك الآية السابقة في قوله تعالى: **".. وأنزلنا معهم الكتاب والميزان** " [43]، فالتعبير بالميزان في هاتين الآيتين بمعناه العدل، لأنه عن طريقه يتوصل الفرد إلى الانصاف وهو من تسمية الشيء باسم المسبب[44] .

أما إذا انتقلنا إلى الكلمة الثانية وهي كلمة القسط، التي تعني الحصة التي يتحصل عليها صاحبها بالحق والاعتدال وهو ما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: " **وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين**" [45]، وكذلك قوله تعالى: "**وأقسطوا إن الله يحب المقسطين**"[46]، وكذلك أيضا قوله تعالى: " **قل أمرربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد**" [47].

كل هذه الآيات تبين أن مادة القسط تعني العدل وكذلك الميزان معناه العدل أيضا، ويقول الإبراهيمي في ذلك: " والعدل من الأقوياء هو الميزان الذي يقر كل شيئ في نصابه " [48] .

ومعنى ذلك أن العدل من طرف الأقوياء يضع الأشياء في مواضعها الحقيقية، دون إجحاف أو تقصير، ولا خوف من حاكم ولا طاغية، والحديث يتوجه به الإبراهيمى إلى أبناء الجزائر ليكونوا متما سكين ومتعاضدين ومترا بطين، وذلك لإعداد العدة التي تجعلهم أقوياء أمام العد والمشترك ليتسنى لهم أخذ حقوقهم كاملة، بدون شرط أو قيد. أي بالعدالة المشروعة التي سماها الإبراهيمي "بالميزان" التي استمدها من الذكر الحكيم .

وقد وردت مادة الميزان في القرآن الكريم بمعنى العدل معنويا وحسيا. ففي الوزن الحسي المعلوم، جاء قوله تعالى: "**وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا** "[49]، ومعنى الآية يجب إتمام الكيل ليكون هناك عدل في المعاملة بين الناس، والثقة المتبادلة، وهو ما ورد ذكره كذلك في قوله تعالى:"**وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان** "[50]، وكذلك ما جاء في قوله تعالى:"**أوفوا الكيل ولا تكونوا**

من المخسرين، وزنوا بالقسطاس المستقيم. ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين"[51]. وكذلك قوله تعالى:"**ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط"**[52]**.** وقوله تعالى:"**ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين**" [53] .

فمجموع هذه الآيات تأمربالعدالة والاستقامة،والانصاف، لأداء الحقوق المفروضة، وتحذر من مغبة التعامل السلبي الذي يؤدي بصاحبه إلى ما لا تحمد عقباه . وهو الأمر الذي رغب رجال الإصلاح تبليغه إلى الشعب الجزائري وزرع هذه الفكرة في نفوسهم، ليشعر هؤلاء الأهالي بأنهم معنيون جميعا بالدفاع عن الوطن، والذود عنه بكل نفس ونفيس لأن هؤلاء المستعمرين دخلاء ويختلفون عنهم في العادات والتقاليد ولا ينتسبون إليهم بأي صلة، ويقول الإبراهيمي في عد م التناسق والتجانس: " ونحن نرى أن الزنا والخمر وما شابهها كبائر تسقط العدالة والشهادة، ولا ترضي مرتكبها معلما لأبنائها .... وأ نتم لا ترونها جرائم ولا تعاقبون عليها. فللقاضي- مثلا - أن يسكر ويعربد ويفسق ويكفر فلا حرج عليه لأنه حر " [54] .

تلك هي الاختلافات الجوهرية الحاصلة بين الجزائريين والمحتل الراغب في مسخ الصفات الأخلاقية السامية المستمد ة مصادرها الأساسية من"المبادىء الإسلامية السمحة والقوانين العادلة التي أتى بها الإسلام، وعامل بها الناس كافة، ولم يفرق بين الأبيض منهم والأسود ولا بين الشريف والوضيع ولا بين الحاكم والمحكوم، بل جعل رئيس الدولة هو وأى فرد من عامة الرعية أمام القضاء سواء وفي سائر الحقوق سواء "[55].

وخلاصة القول: نلاحظ أن العدل من العناصر الأساسية في حياة الأمم والجماعات لأنه يدعم المحافظة على استمرار الحياة، وترقية الشعوب وازدهارها، وتجنب الخلافات وبث المحبة والوئام والسعادة بين الأفراد والأمم ولذلك يجب المحافظة عليه، والدفاع عنه لاستمراريته وتقوية نفوذه .

الهوامش

(01) محمد عبد الستار نصار، دراسات في فلسفة الأخلاق، دار القلم، الكويت، ط: 1، 1902، ص252 .

(02) الجوهري ،الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط: 3، 1984، ج5، ص1760 .

(03) أبو هلال العسكرى، الفروق اللغوية، تحقيق حسام الدين القد سي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، 1981، ص 191 .

(04) المرجع نفسه، ص 192 .

(05) محمد عبد الستار نصار، دراسات في فلسفة الأخلاق، ص252 .

(06) أحمد الشرباصي، موسوعة أخلاق القرآن، دارالرائد العربي بيروت لبنان، ط: 1، 1981، ج: 1، ص22 .

(07) المرجع نفسه، ص22 .

(08) محمد السيد يوسف، منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمع، دار السلام مصر، ط: 2 ص171

(09) سورة الحديد: 25.

(10) تفسير ابن كثير، دار ابن حزم بيروت، ط 1، 2002، م 4 ص 2824.

(11) سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق القاهرة، ط 35 ،2005 م 6، ج 26 30 ص 3449.

(12) سورة الأنعام: 115.

(13) محمد السيد يوسف، منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمع، دار السلام القاهرة، ط:2، 2004 ،ص173.

(14) مسلم، صحيح مسلم، دار الفكر،1983، م:4، ج:7، ص 120. بقية الحديث: " وشاب نشأ بعبادة الله ورجل قلبه في المساجد ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله ورجل تصد ق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ماتنفق شماله ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ..

(15) محمد السيد يوسف، منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمع، ص: 173.

(16) الترمذى، سنن الترمذي، تحقيق حسن نصار، دار الكتب العلمية بيروت، 2000، ط:1، ج:2، ص331,

(17) المرجع نفسه، ص 175، نقلا عن السيد قطب، العدالة الإجتماعية، ص: 141.

(18) محمد عبده، نهج البلاغة، تحقيق أحمد عاشور، دار الشروق، ص: 351.

(19) بكير بن سعيد أغوشت، أضواء على الأخلاق الإسلامية والمعاصرة، دار البعث قسنطينة، 1984، ص47.

(20) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، الشركة الوطنية النشر والتوزيع، الجزائر ج:2، ص405 .

(21) سورة البقرة: 85 .

(22) سيد قطب، في ظلال القرآن، م:2، ج: 57، ص:688.

(23) المصدر السابق، ص: 689.

(24) الشيخ محمد البشير الابراهيمى، عيون البصائر، ج: 2، ص: 405.

(25) سورة النحل: 90 .

(26) سيد قطب، في ظلال القرآن، مج: 4 ،ج 1218، ص:2190.

(27) أحمد الشرباصي، موسوعة أخلاق القرآن، ج1 ص31 .

(28) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ج: 2، ص405.

(29) سورة الرحمن: 60 .

(30) سورة النساء: 86 .

(31) أحمد الشرباصي، موسوعة أخلاق القرآن، ج1، ص 31 .

(32) سورة البقرة: 194 .

(33) سورة الشورى: 40 .

(34) الشيخ العربي التبسي، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، جمع وتعليق: شرفي أحمد الرفاعى، دارالبعث قسنطينة، الجزائر، ط: 1،1981، ص: 232 .

(35) سورة ص: 26 .

(36) الشيخ العربى التبسى، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، ص: 152 .

(37) سورة النساء: 105 .

(38) الشيخ محمد البشير الابراهيمي، عيون البصائر، ج 2 ،ص: 247 .

(39) سورة العلق: 1-2-3-4-5 .

(40) سورة الحديد: 25 .

(41) محمد الطاهر فضلاء، قال الشيخ الرئيس عبد الحميد بن باديس، مطبعة البعث- الجزائر، ب، ت، ص254.

(42) سورة الشورى: 71 .

(43) سورة الحديد: 25 .

(44) محمد على الصابونى، صفوة التفاسير، دارالصابونى القاهرة، ط:9، م:3، ص137.

(45) سورة المائدة: 42 .

(46) سورة الحجرات: 9 .

(47) سورة الأعراف: 29 .

(48) الشيخ محمد البشير الابراهيمي، عيون البصائر، ج 2 ص416 .

(49) سورة الإسراء: 35 .

(50) سورة الرحمن: 9 .

(51) سورة الشعراء: 181، 182، 183 .

(52) سورة هود: 84 .

(53) سورة هود: 85 .

(54) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ج 2، ص240 .

(55) محمد السيد يوسف، منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمع، ص: 179.